ان تسكّن ثورة المعتصبين بقوة الجند لانهم كانوا يعيشون في البلاد حتى اتلفوا التي مركبة في مدينة واحدة وقدرت خسائر سكة الحديد فقط بمليونين من الجنيهات

واعتصاب العمال يتناول كل حرفة وصناعة ونتيجته الغالبة خسارة العمّال فعمّال برستن خسروا نصف مليون من الجنيهات وعادوا الى اعمالهم بالاجور السابقة وبنّاؤو مدينة لندن خسروا ثلثمئة الف جنيه وعادوا الى عملهم بالاجرة السابقة واكثر الذين اعتصبوا عادوا الى عملهم بالاجرة السابقة

هذا وقد ابنّا في مقالتين مسهبتين في المجلد الحادي عشر من المقتطف اسباب الاعتصاب ونتائجه واوضحنا ان نتائجه وخيمة على الصناع ولو زادت اجورهم لان هذه الزيادة والخسارة التي خسرها اصحاب المعامل بسبب الاعتصاب تضاف الى ثمن المصنوعات فتؤخذ ثانيةً من العمال ونحوهم ممن يشتري المصنوعات. وقد زادت اجور العمال وقلّت ساعات عملهم ورخصت حاجياتهم لا من اعتصابهم بل من تسهيل الاعمال بواسطة المكتشفات والمخترعات الحديثة فصار العامل يصنع في عشر ساعات مثلاً ما لم يكن يصنعه في ثلاثين واربعين ساعة وصار يتاع بالريال الواحد من الطعام والشراب واللباس ما لم يستطع ابتياعهُ قبلاً باقلّ من ريالين او ثلاثة . ولو اقتصد العمّال في نفقاتهم وشاركوا اصحاب المعامل او انشأوا معامل جديدة لاشتركوا في كل ارباح المعامل سواء زادت اجورهم ام نقصت وعاشوا بالراحة والرفاهة

مآل العمران

وهي محاورة بين الرضى والضجر

حدّث الباحث بن العصر قال . دخلت القاهرة المُعزّية ابحث عمّا لمدارسها من المزيّة حتى صبرت على نوائب الايام ولم تُدرَس كما دُرِسَت اخواتها في العراق والشام. فجمعني القدر بصديقيّ الرضى والضجر ورأيتهما يتأهّبان للمحاورة في احوال العمران أهو ثابت الاركان مآله السعادة ام متزعزع نهايته الخسران . وكنتُ قد شاهدتُ احد الفضلاء راجعاً من معرض باريس . وسمعته يشكو من مضارّ الحضارة ويشرح معائبها بوجه عبوس . واجتمعت قبل ذلك بناظر المعارف السابق ودار الكلام على اسباب الغنى والفقر ونتائج

الاحتكار فاطلعني على كتاب جديد ازاح عن مضار العمران الستار وانبأ بمصيره الى ما صار اليه عمران اليونان والرومان او تتخذ التدابير لنسمة الارض بالسواء بين طوائف الانسان. فجلستُ الى صديقيَّ التقطُ ما يتثران من درر الاقوال وانتقد الآراء انتقاد الدرر الغوال

قال الرضى لقد علم الاقوام ممن ضمّ مجلسنا ان جواد العمران الذي كبا باسلافنا الاولين فرمى بمجدهم الباذخ من اعلى عليين. قد اعتاد الجريَ في هذا المضمار وانفسح له مجال الجد وزالت منهُ اسباب العثار. فرقي ابن القرن التاسع عشر ذروة النجاح في كل فن ومطلب وذلّل الصعاب ومهّد الشعاب وانطق الجماد وقرّب البلاد فاستتبّ الأمن وحُفظت الحقوق وانح لكلّ احد ان يتمتع بجنى انعابهِ هنيئًا مريئًا ويطلق العنان لجواد افكارهِ ولا شكيمة تلجمهُ الّا شكيمة الحقوق المتبادلة والواجبات الادبية. وأمِنَ من تقلبات الزمان فاذا امحل زرعهُ لقلة المطر او لآفةٍ أخرى لا يمكنهُ دفعها جلب المؤونة من بلاد أخرى على اسهل سبيل. وقد شرع في درس طبائع الاوبئة فامسك بشكيمة بعضها وسبذلها كلها. وكيفما التفتنا لا نرى الّا تباشير النجاح ودلائل الفلاح

واذا رأيت من الهلال نموّهُ ايقنت ان سيصير بدرًا كاملا

فقال الضجر لقد صدق منّ قال وعين الرضى عن كل عيبٍ كليلةٌ فاين نحن من الكمال والدهر في الناس قلّب والدنيا ادوار دورٌ يمضي ودورٌ يجيء والارض قائمة الى الابد والعمران الذي نراهُ في وقتنا هذا سبقهُ عمران العرب والرومان واليونان والفرس والقبط. وكل شعب من هذه الشعوب رقي ذروة المجد وبلغ غايةً ما وراءها غاية في العلوم والصنائع. وحتى الآن اذا اردنا ان نذكر افراد الرجال الذين نبغوا في الفلسفة والحكمة والشعر والخطابة والصناعة لم نرَ بين المتأخرين مَن يُذكَر مع المتقدمين فأولئك قدوتنا التي بها نقتدي وسراجنا الذي بهِ نهتدي وما عمراننا باعظم من عمرانهم ولا هو ارفع منهُ شأنًا. وستنابهُ نوائب الايام وتدور عليهِ الدوائر كما تدور على كلّ حيّ. ولا يمتاز الّا في انهُ أمِنَ الفنيّ ورفعهُ الى مقام الآلهة وحقّر الفقير وحطهُ الى مقام البهائم. بل ان فقير العواصم الاوربية الشهيرة كلندن وباريس ليودّ ان يشبع شبع المواشي ويُعامَل معاملة البهائم. أوَلم يبلغك ان المدينة التي تألفت فيها الجمعيات للمحاماة عن الحيوانات وتطبيب المريض منها يموت فقيرها جوعًا ويتتن في بيتهِ وليس من يواريهِ التراب. اما التقدم في الفنون والصنائع فهو الليّة الكبرى لانهُ اغنى الانسان عن اخيهِ واقام

الادوات الحديدية التي لا تعرف تعباً ولا كللاً مقام ابن آدم وجلب الطعام من حيث لا ثمن له فبارت غلّات الارض وكسدت سوق الزارع والحاصد واستبدّ بالربح الاغنياء اصحاب السفن والمعامل. ولقد تعب آبن اوربا وابن اميركا على تحرير ابن افريقية وها يستعبدان اخاها ويستوليان على جنى يديه. وان كنت في ريب من ذلك فانظر الى عصابات العمال وقيامهم المرة بعد الاخرى عساه ان ينالهم بعض دريهمات من الوف الدنانير التي يربحها اصحاب المعامل. أندعو ذلك ارتقاء الى ذروة النجاح وتقدّماً في طريق الفلاح

فقال الرضى رويدك لقد اطلت الشكوى وعظّمت البلوى اوَ لا ترى ان الكون محكوم بشرائع لا تُرَد ولا تُستأنف وان كل حيّ خاضعٌ لها على حدٍّ سوى. وقد أرانا تاريخ المخلوقات الدنيا وتاريخ الانسان ان التقدّم شريعة طبيعية ولكنه لا يتم ما لم يدُس المتقدّم على هامة المتأخر. ولا بد من تضحية البعض لاجل مصلحة الكل. والاجتماع الانسانيّ مؤلف من شعوب والشعوب من افراد والافراد من دقائق صغيرة تتألف منها ابدانهم والدقيقة لا تحيا ولا تعيش ما لم يهلك لاجلها كل يوم دقائق كثيرة من دقائق الطعام. والجسد كله لا يعيش ما لم تهلك دقائق كثيرة من دقائقه كل لحظة. والشعب كله لا ينمو ولا يقوى الاّ ببذل حياة الوف من افراده. والاجتماع الانسانيّ ما وصل الحالة التي وصل اليها بعد ان هلكت الوف من القبائل والامم. والآن لا بدّ من هلاك بعض الافراد فالذي لا يموت من الجوع يموت من الحرب او من الامراض او من شدّة السعي ومواصلة الطلب ولكنه لا يقضي نحبه حتى يسلّم العلَم الذي كان بيده لجندي آخر من ابناء نوعه فيسير بعض الخطى في ميدان الظفر ويموت قرير العين. وبما ان الجسم الحيّ مركّب من دقائق صغيرة قصيرة الحياة اقتضت الحكمة ان يتجدّد كله لكي تطول حياته وهذا التجدد جارٍ على اسلوبين الاوّل بالقطع كما يقطع عود من الكرمة ويُزرَع فينمو ويصير كرمة جديدة ولو شاخت الكرمة التي قطع منها. وكما تقلع الفسيلة من جانب النخلة وتُزرَع فتصير نخلة جديدة. والثاني بالولادة وهو اكثر شيوعاً في طوائف الحيوان والنبات ومدارها ان تتحد بعض الدقائق من الابوين الذكر والانثى فتصير كائناً قائماً بنفسه حاوياً شيئاً من خواص كلّ من ابويه. ومما لا ريبة فيه ان التقدّم الذي يتقدّمه احد الابوين او كلاهما جسدياً كان او عقلياً لا يُعدَم من الوجود بل يتنقل بعضه الى ولديهما فيمرّ الولد على الاطوار التي مرّ عليها اسلافه ثم على الطور الذي مرّ عليه ابواه ثم يزيد عليه شيئاً من عنده ويُعِدّ نسله للتقدّم كما اعدّه ابواه للتقدّم. ولقد احسن من قال ان في عمران

هذا العصر بزورَ عمران العصور التالية . وعلى هذا النمط تقدّم الانسان من حال البداوة الى حال الحضارة . فهلاك الافراد الذي تشير اليهِ شرط واجب للارتقاء

فقال الضجر رويدك لقد اطنبت واغربت فلو كان الناس يرتقون كما قدّمت لبلغوا السماكين منذ مئات من القرون وقد ابنتُ لك ما لا يجهلهُ احد وهو ان ارتقاء الانسان بلغ حدّهُ في هوميروس وافلاطون وارسطو وديموستنيس وبليتوس وكنوشيوس وابن سينا وابن رشد وغيرهم هذا ناهيك عن ان التأخّر ناموس عامٌ كالتقدم وحسبك دليلاً ان كل الامم القديمة التي سمت الى السماكين عزةً وارتفاعاً قد انحطت من معاليها ولم يبقَ منها الاّ بقية رأت آثار اسلافها فلم تصدّق انها آثارهم فقالت هي من اعمال الجن والعفاريت واليك قول النابغة في تدمر وهي من بنيان اسلافِ العرب

وجيش الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمرَ بالصفاح والعمدِ

فقال الرضى أعلمُ ذلك ولا انكرهُ ولو امهلني لاتيت على ذكرهِ وبينت لك مغزاهُ . فاعلمْ ان ارتقاء الشعب بتم عن يد بعض افرادهِ فهؤلاء تبلغ فيهم القوى العقليّة اشدّها فيخترعون ويكتشفون ويستنبطون ويتودون الشعب كلهُ في ميادين الحضارة . وقد يأتي اولادهم مثلهم فيسيرون في خطتهم ولكن ذلك نادر والغالب ان الشخص الذي ينبغ في امر لا ينبغ في غيرهِ فيكون ضعيفاً في امور كثيرة وكثيراً ما ينقد قوة التوليد فلا يخلف نسلاً ولذلك ترى ان اكثر علماء الارض ماتوا بلا عقب وان خلفوا اولاداً ماتت اولادهم بلا عقب ولكنّ قوامَ العقليّة لا تموت بموتهم ولا تنقرض بانقراض نسلهم بل تبقى خالدة في بطون الاوراق وعقول الناس . وما يقال على الفرد يقال على الشعب كلهِ فقد ينبغ الشعب ويتقدم ويسبق كل الشعوب الغابرة والمعاصرة ثم يضعف ويخمل وينقرض ولكن التقدم الذي تقدمهُ لا يزول من الدنيا بل ينتقل الى غيرهِ من الشعوب . افلا ترى ان نور المعرفة اشرق مدةً من الدهر في المشرق ثم انتقل الى المغرب ولا يبعد ان يعود ايضاً الى المشرق . وما من فضل لاهل هذا العصر اذا احرزوا كل التقدم الذي تقدمهُ اسلافهم وزادوا عليهِ لان ذلك مطلوب منهم بحكم وجودهم . ولا اقول ان الانسان يتقدم الى ما لا نهاية لهُ اذ يحتمل ان ينقرض نوع الانسان عن هذه البسيطة كما انقرضت انواع اخرى من الحيوان بل يحتمل ان تحترق الارض كلها او يلاقيها الردى فتتكسّر وتضمحل . وآمالنا ان العمران الحالي ارسخ اساساً من عمران اليونان والرومان ومَن سبقهم من امم المشرق لانهُ مبني على العقل والادب فاذا انسخ منهُ الادب وبقي العقل تنوّضت دعائمهُ

حالاً كما نقوضت دعائم العمران الروماني في اواخر مدته لان الرومانيين كانوا اذكى عقلاً في اواخر مدتهم منهم في اولها ولكن آدابهم فسدت ففسدت معها ابدانهم ولم يقووا على مقاومة القبائل البربرية القوية البنية الرائعة الآداب. وكذا مملكة الروم في المشرق فسدت آدابها فلم تقوَ على مقاومة العرب الذين غزوها بحمية دينية وآداب رائعة

اما موت فقراء لندن وباريس جوعًا فالعمران غير مطالَب به وانما المطالَب به المسكر وهو آفة اصابت جسم العمران وزوان نما مع الحضارة. واهلُ المبرّات الذين هذّب العمران اخلاقهم ورقّت الديانة آدابهم ورجال السياسة الذين ينظرون الى مصلحة الامة قبل مصلحتهم لا يألون جهدًا في ازالة هذا الشر وتخفيف مضارّه. وهل يموت من الفقراء في لندن وباريس وكل ممالك اوربا ما يموت في مجاعة واحدة في الهند والصين او ما مات في الديار المصرية في المجاعات السالفة. فعلى مَ تكبّر السيئة وتصغّر الحسنات. وشكواك من التقدم في الفنون والصنائع وقيام الآلات مقام الانسان لا تصحّ الاّ اذا اثبتّ ان الانسان زاد بذلك تعبًا ونصبًا او انسدّت في وجهه ابواب الرزق والواقع على الضد من ذلك لان الآلات التي تشير اليها قد خفّفت اتعاب الناس وزادت رفاهتهم والعامل الذي كان يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم وهو في اشد التعب وتحت اشد المخاطر صار يشكو الآن من ثماني ساعات والذي لم تكن اجرته تكفي لتشبعه خبزًا صار يشكو الآن لانها لا تطعمه مع الحاجيّات النواكه والحلوى ولا تسقيه الخمر واللبن ولا تكفي لرفاهته ورفاهة اولاده هذه هي شكوى العمال وهذا هو سبب اعتصابهم على اصحاب الاعمال ونحن لا نلومهم على الشكوى ولكننا اذا قابلنا شكواهم بشكوى اسلافهم الذين كانوا يباعون مع الارض بيع البهائم ويساموا الذل والخسف ولا امان على دمهم ولا على عرضهم ظلمنا القرن التاسع وجنينا على التاريخ. وحسْبُ عامّة الناس ان ملوكهم يدافعون عن حقوقهم وعلماءهم يبحثون عمّا يخفف اتعابهم واغنياءهم يتسابقون لترخيص موارد الرزق والكل يسعون نحو غاية واحدة وهي ارتقاء نوع الانسان. ولو صرفنا النظر عن ممالك الارض اجمع وحصرنا البحث في دائرة هذه البلاد لوجدنا دلائل الارتقاء بادية في كل مدينة وكفر ولا ينكرها الاّ من جهل التاريخ او تعامى عن الحقائق

قال الباحث فما تمّ الرضى كلامه حتى قلت لها لقد تبيّن مما اوردتماه منصلاً ان نوع الانسان جملةً سائر في طريق الارتقاء ولو انحطت طوائفه بعد ارتقائها وشأنه في ذلك شأن كل جسم حيّ واني انسئت من المجاعة بعض الملل فلنودع الكلام الى فرصة اخرى وان غدًا لناظره قريب